"القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة" للدكتور محسن محمد صالح[1]

Mohssin Mohammad Saleh "Its Historical Background and Contemporary Developments"

إعداد: الدكتور حسن القرشي[2]

Dr. Hassan Korchi



مقدمة:

أسهمت أحداث السابع من أكتوبر 2023م المجيدة المتمثلة في طوفان الأقصى، وما شهدته من الاعتداءات الوحشية الهمجية للكيان الصهيوني، في إحياء القضية الفلسطينية في العالم، وأعادت مركزية القدس ومكانتها الريادية في قلوب أبنائها كجامعة موحِّدة لشعوبها، بل شملت ذوي المروءات والفضلاء من غير المسلمين، حيث توجهت بوصلة الجميع نحو العدو المشترك،

(1) أ. د. محسن محمد صالح، أردني (من أصل فلسطيني)، مواليد عنبتا، سنة 1960، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1993، أستاذ دكتور في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، متخصص في الدراسات الفلسطينية، يعمل حالياً مديراً عاماً لمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت منذ 2004م.

(2) دكتوراه في الدراسات الإسلامية، المغرب.

فانطلقت المسيرات والوقفات والمظاهرات في معظم العواصم تنديداً واستنكاراً للمحتل الغاشم وتعاطفاً مع الشعب الفلسطيني الأعزل.

ما ميّز هذه الهبّة واليقظة الشعبية عفويتُها وفتوتها، شباب وأطفال قادهم الدافع الإيماني وغيرتهم الإنسانية لنصرة المستضعفين لقضية تفوق أعمارهم، فلئن فاتتهم تفاصيل الحكاية وخلفياتها التاريخية، فقد حضر مكانها الواجب الديني والباعث الإنساني النبيل.

لا غرو أن الكتاب الذي بين أيدينا، والموسوم بـ« القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة»، يخاطب بالأساس هذه الفئة الفتية والعريضة، والمعول عليها في تغيير موازين القوى على المستوى المتوسط والبعيد، حيث صرّح كاتبه د. محسن محمد الصالح[1] في تقديمه للكتاب في طبعته الأخيرة[2] بقوله: «هذه الدراسة تخاطب الذين يرغبون في الحصول على فكرة عامة عن قضية فلسطين، وتغطي حاجة أولئك الذين لا يجدون وقتا للدراسات التفصيلية المتخصصة»[3].

أهمية الكتاب:

يستمد هذا السِّفر أهميته من خلال موضوعه أصالة، فهو يتحدث عن القضية الفلسطينية بوصفها القضية الجوهرية والمصيرية للأمة، فقضية فلسطين تعدّ بداية المواجهة الحاسمة بين الحق والباطل. كما يشرُف الكتاب أيضا بخبرة كاتبه، وهو الخبير المتخصص في الدراسات الفلسطينية، تاريخياً، وسياسياً، واستراتيجياً، ثم بكونه محرر التقرير الاستراتيجي الفلسطيني السنوي، والذي يُعد مرجعاً أساسياً للمتخصصين والمهتمين

(1) أ. د. محسن محمد صالح، أردني (من أصل فلسطيني)، مواليد عنبتا، سنة 1960، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1993، أستاذ دكتور في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، متخصص في الدراسات الفلسطينية، يعمل حالياً مديراً عاماً لمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت منذ 2004م.

(2) النسخة الأصلية للكتاب صدرت سنة 2002 بعنوان القضية الفلسطينية: خلفياتها وتطوراتها حتى سنة 2001، ثم عرفت النسخة الثانية تحديثا وتنقيحاً صدرت سنة 2012، ثم أضيف إلى هذه الطبعة الجديدة فصل سابع غطى الفترة 2012-2021.

(3) القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، محسن محمد صالح، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، 1443هـ 2022م، ص 7.

بالشأن الفلسطيني»[1]، ثم لتغطية الكتاب لكل الواجهات، التاريخية والجغرافية والدينية الشاملة لفلسطين عبر العصور إلى صيف سنة 2021، مع التركيز خاصة على العقدين الأوّلين من القرن الحادي والعشرين لاستيعاب الواقع المعاصر للقضية، كل ذلك في ترتيب كرونولوجي منطقي، مدعوم بالكثير من الصور والخرائط التوضيحية، ومبسوط بلغة سهلة مركزة وموجزة، مع الاحتفاظ بالصيغة العلمية الأكاديمية الموثّقة، بعيداً عن الخطاب العاطفي الإنشائي.

منهج الكاتب:

إن الناظر في هذه الدراسة القيمة يلحظ بشكل قوي المنهج التاريخي في رصد الكاتب للقضية الفلسطينية كظاهرة تخضع في بحثها لثلاث مراحل: كيف نشأت، ثم كيف تطورت، ثم كيف آلت، أي ماهي النتائج والآثار التي ترتبت عليها بعبارة بسيطة»[2]، ثم المنهج التوثيقي المتمثل في جمع أطراف أو أجزاء جسم علمي ما، متفرقة في بطون التراث، وإعادة تركيبها، تركيبا علميا، متناسقا، غير أن الكاتب لم يكن مجرد سارد للنصوص بل ظهرت شخصيته بجلاء في المنهج التحليلي القائم على عناصر النقد وربط الماضي بالحاضر تجلت في اقتراح بدائل من خلال آرائه واختياراته الدقيقة، ومن ذلك انطلاقه من مسلمة، لا مرية فيها ولا نقاش، أن فلسطين أرض عربية إسلامية وأبناؤها أحق بها.

مضامين الكتاب:

حصر المؤلف بإيجاز في مقدمة كتابه مكانة القضية الفلسطينية في العالم العربي والإسلامي في ثلاثة جوانب وهي: «الجانب الأول طبيعة الأرض بقدسيتها وبركتها ومركزيتها في قلوب العرب والمسلمين ومكانتها لدى أتباع الديانات السماوية. وموقع الأرض الاستراتيجي في قلب العالم العربي وقلب العالم الإسلامي. والجانب الثاني: طبيعة العدو بادعاءاته

(1) «نظراً لشمولية تغطيته لتطورات القضية الفلسطينية على مدار عامين كاملين، مع التزامه بدقة بالمعايير العلمية والمهنية، بالإضافة إلى غناه بالمعلومات والإحصاءات المحدّثة الدقيقة، وتدعيمه بعشرات من الجداول والرسوم البيانية، فضلاً عن الرؤى الاستراتيجية والاستشراف المستقبلي للأحداث» التقرير الاستراتيجي الفلسطيني 2020-2021، محسن محمد صالح ومجموعة من الباحثين، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت لبنان، ط1، 1443هـ 2022م، ص 21.

(2) لمحات عن منهجية الحوار والتحدي الإعجازي للإسلام في هذا العصر، رشدي فكار، مطبعة التقدم مصر، ط 1، 1402هـ 1982م، ص14.

العقائدية والتاريخية، وبروحه الاحتلالية التوسعية، التي تسعى لطرد شعب فلسطين، وإلغاء حقوقه الأصيلة في أرضه ومقدساته. والجانب الثالث: طبيعة التحالف الغربي - الصهيوني الذي هدف أساساً إلى تمزيق الأمة الإسلامية، وإضعافها وإبقائها مفككة الأوصال، تدور في فلك التبعية للقوى الكبرى»[1].

لينتقل بعد ذلك إلى تناول جغرافية فلسطين وموقعها الاستراتيجي في قلب الأمة، وتاريخها الموغل في القدم إلى العهد الإسلامي، فهي أرض معظم الأنبياء مما بوأها مكانة لدى أتباع الديانات السماوية، ليخلص بالحقائق التاريخية إلى دفع المزاعم الدينية والتاريخية لليهود في أرض فلسطين، يقول: «فإن حكم بني إسرائيل لفلسطين كان فترة ضئيلة ولم تتجاوز الأربعة قرون على أجزاء من فلسطين، وليس كلها. أما الحكم الإسلامي فقد استمر نحو 12 قرناً (636-1917م) قطعته لفترة ضئيلة فترة الحروب الصليبية. وإذا كان معظم اليهود قد غادر فلسطين وانقطعت صلتهم الفعلية بها مدة 18 قرناً، منذ 135م وحتى القرن العشرين، فإن أهل فلسطين الأصليين لم يغادروها طوال الأربعة آلاف وخمسمائة سنة الماضية»[2].

ثم يتتبع الكاتب بعد ذلك نشأة الحركة الصهيونية وبدايات الهجرة اليهودية ويربطها بظهور حركة الإصلاح الديني في أوروبا؛ تزامنا مع انهيار الدولة العثمانية، وانكسار آخر حصن جامع للأمة، ثم بداية الحرب العالمية الأولى وتداعي الدول الإمبريالية على قصعة الدول المستضعفة، كل ذلك أسهم في صدور تصريح بلفور الذي اشتهر بـ «وعد بلفور المشؤوم» في 1917 وتعهد بريطانيا بإنشاء وطن عربي قومي لليهود في فلسطين، وهو أغرب الوعود في التاريخ الإنساني، وقد شكّل ذلك فرصة تاريخية سانحة للسياسة الاستعمارية البريطانية من أجل إسكات الطموح اليهودي.

في الفصل الثاني من الكتاب والممتد من عام 1918 الى عام 1948 تطرق المؤلف لفتره الاحتلال البريطاني لفلسطين وتأسيس الوكالة اليهودية، وتطور المشروع الصهيوني، ونشأة المقاومة، وبداية اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى، مع ظهور الحركة الوطنية الفلسطينية في العام 1918 والتي ركزت جهودها على إلغاء وعد بلفور وإيقاف الهجرة اليهودية ووقف بيع الأراضي واستقلال فلسطين.

(1) القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، محسن محمد صالح، ص 12.

(2) نفس المصدر، ص 25.

كما أبرز الدور الفعّال لمفتي القدس الحاج أمين الحسيني رحمه الله في إذكاء ثورات الغضب الشعبي، إلى جانب دور العلماء في التوعية بقضيه فلسطين وبخطورة المشروع الصهيوني، ومن ثم إصدار الفتاوي بتحريم بيع الأراضي لليهود، والدور العسكري الكبير لحركه الشهيد عز الدين في السيطرة على الريف الفلسطيني.

وعرفت هذه الفترة دخول الولايات المتحدة بشكل مباشر في القضية الفلسطينية، وذلك لتقارب الخلفية العقدية، والرغبة المشتركة من أجل السيطرة على حقول النفط، ثم الضغوط المتوالية للمجموعات اليهودية في واشنطن ومن والاهم من أصحاب الثراء والقوة

ليختم الفصل بالوقوف على قرار التقسيم المشؤوم رقم 181 المخالف لمواثيق وأسس الأمم المتحدة، فكان سبباً مباشراً لاندلاع حرب 1948، حيث تحمل أبناء فلسطين أعباء هذه الحرب، خاصة بعد رفض الدول العربية إرسال جيوشها وخيانتها الظاهرة والخفية، ومنع استخدام حدودها للقيام بعمليات مسلحة، ومن ثم إعلان الحركة الصهيونية عن قيام «دولة إسرائيل» المزعومة.

ثم يستعرض المؤلف في الفصل الثالث تطورات القضية خلال الفترة 1949-1967م، والذي تزامن وخروج المستعمر من معظم بلدان العالم الإسلامي، في حين حلّت مكانه أنظمة رسخت نفوذها وهويتها القطرية بدل ترسيخ الوحدة، وإن رفعت شعارات قومية، فرضخت للواقع واتجهت للتسوية بدل التحرير، وخص الكاتب هذا الفصل بالتركيز على تطور العمل الوطني الفلسطيني، ونشأة حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحرب يونيو 1967م وانعكاساتها.

أما الفصل الرابع فتناول فيه الكاتب التطورات التي شهدتها الفترة التي تلت هزيمة 1967م حتى المرحلة التي سبقت اندلاع الانتفاضة الأولى سنة 1987م، هذه الحقبة التي شهدت بداية الصحوة الإسلامية مقابل أفول البعد العروبي والناصري، وبروز الحركات والتنظيمات الإسلامية في المساجد والجامعات والنقابات، كما ألمع الكاتب في هذا الفصل إلى ذكر أسباب بروز الهوية الوطنية الفلسطينية بعد تخاذل الأنظمة العربية تحت الضغط الغربي، وللأسف فإن انشغال هذه الأنظمة بأولوياتها المحلية، جعل فلسطين وأهلها في امتحان عسير، ومعاناة دائمة، من مصيبة 1948، إلى ابتلاء 1956، مرورا بطامة 1967، ثم كارثة 1973.

وتناول الكاتب في الفصل الخامس الفترة الممتدة من اندلاع الانتفاضة المباركة سنة 1987 وحتى فشل مفاوضات كامب ديفيد سنة 2000، مروراً بنشأة حركة حماس، وانتقال منظمة التحرير الفلسطينية من الكفاح المسلّح إلى التسوية السلمية، واستمرائها للواقع وما تلاه من تنازلات عن حقوق الشعب الفلسطيني استجابة للضغوط الخارجية والذي توج بكارثة «اتفاق أوسلو»، وتشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية، وفي المقابل تزايد العلاقات الديبلوماسية والاقتصادية للكيان الإسرائيلي مع معظم الدول الغربية الحربائية

أما في الفصل السادس فقد تطرق المؤلف فيه إلى التطورات التي تلت اندلاع انتفاضة الأقصى سنة 2000 وحتى سنة 2011، إذ اعتبر العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين بمثابة منعرج في مسار القضية الفلسطينية بأحداثه ومتغيراته، أعادت الحياة للمظاهرات الشعبية، وإن لم تتوج بنتائج حاسمة، فذكر انتفاضه الأقصى، ووضع القدس، ثم وقف ملياً مع الانقسام الداخل الفلسطيني بين حركتي فتح وحماس، وسيطرة فتح على الضفة الغربية وسيطرة حماس على قطاع غزة، ثم مسار مفاوضات التسوية المسدود، والجدار العازل حول الضفة الغربية، والوضع الداخلي للكيان الاسرائيلي، كما تطرق بإسهاب الى العدوان الصهيوني على غزة، ومظاهر صمود المقاومة وأهل غزة عموماً، وإحصاءات حول قوافل الشهداء.

أما الفصل السابع وهو الفصل الأخير الذي أضافه في الطبعة الأخيرة من الكتاب، وقد جاء طويلا بالمقارنة مع سابقيه، إذ خصه بالفترة الممتدة من 2012 الى 2021، حيث استعرض فيه مجموعة من الإحصاءات والمؤشرات السكانية، ثم الواقع الحالي للقدس من الحفريات تحت المسجد الأقصى، والتوسع في بناء المستوطنات، والاعتداءات المتكررة على المسجد الأقصى، كما وقف مع التحول النوعي لعمليات المقاومة في غزة، وأسباب تعثر مسار المصالحة الفلسطينية، كما تحدّث عن التحاق جل الأنظمة العربية إلى ركب التطبيع مع الكيان الصهيوني مخالفة بذلك إرادة الشعوب التي ترى موقنة أنه مشروع ظالم يحمل بذور أزماته في ذاته ويسير عكس حركه التاريخ.

ليختم المؤلف كتابه بتوصيات وتحذيرات جد مهمة لتفادي ضعف الأداء وتوخي القعود واستمراء عافية الجبناء، وإذكاء جذوة المقاومة والجهاد، والإعراض عن المعارك الجانبية وآثارها، مع خطة عمل جماعي منهجي متواصل ضمن رؤية استراتيجية محددة، أخذاً بالأسباب وتعلّقا برب الأسباب، حتى التحرير والنصر الموعود بإذن الله.

خاتمة:

الكتاب بحق وثيقة تاريخية مهمة لما يجب أن يُعلم من القضية الفلسطينية بالضرورة، لا يستغني عنه مبتدئ ولا دارس متخصص، وحب حصيده أنه يبرز للمسلمين وغير المسلمين المشروع الصهيوني بجذوره التاريخية وأبعاده الدينية التوراتية الوثنية، التي تبيح له القتل والتدمير والإبادة لكل حي ولكل حياة، فمعرفة العدو جزء لا يتجزأ من المعركة، لأن خطورته تتعدى فلسطين لتشمل الإنسانية جمعاء.

بل إن الصهيونية العالمية بوجهيها الديني واللاديني وداعميه من دول الاستكبار العالمي سياسياً وإعلامياً واقتصادياً وعسكرياً، أضحت أشد فتكاً من الصهيونية اليهودية، ولم تعد المعركة مقتصرة على أرض فلسطين وأكناف بيت المقدس، لأن فلسطين ليست سوى مرحلة انتقالية نحو «إسرائيل الكبرى» التي ترسمها الخرائط الصهيونية، وبالتالي ليست قضية محلية بل قضية مصيرية، يبدأ تحريرها من كل قطر عربي حين انعتاقه من قبضة الاستبداد والفكر القعودي الذي ينتظر انهيار الكيان بفعل سحر خفي، لينتهي عند كل فضلاء العالم حينما ينخرطوا في حِلف يجمع أصحاب النيات السليمة والعقول الحكيمة والإرادات الصادقة المناهضة للفكر الصهيوني، فالنصر رهين بالاستحقاق، و﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ ما بأنفسهم﴾ (الرعد، الآية: 11).

لقد نجح الكاتب في سبر أغوار القضية الفلسطينية بشكل شمولي ودقيق وعميق، حين ربطها ابتداءً بعقيدة الأمة، انطلاقا من قراءة التاريخ بمنظار القرآن والحديث مع التفسير المادي، هذه النظرة التي تبصر القضية في أبعادها الضاربة الأعماق في سنة الله، حتى لا ننسى الله في خضم التدافع الحركي والأخذ بالأسباب فينسينا الله أنفسنا، فيكون النصر دنيا في حقنا إن لم ننصر الله.

ثم لما ربطها بكل الأمة، بدل «قضية الشرق الأوسط» كصراع جغرافي مصلحي،حيث أنه نجح في تحديد الصراع وتوصيفه ووضعه في سياقه المناسب، فالقضية الفلسطينية هي المؤشر على واقع الأمة الغثائي، وستبقى «البوصلة التي تحدد مسار ومصير الأمة صعوداً أو هبوطاً، والمؤشر الدال على مستوى وعيها ونهوضها وشهودها الحضاري»[1]، مما يلقي المسؤولية على كل أفراد الأمة، كل من موقعه وعلى قدر استطاعته بشرط استفراغ الجهد وكافة الإمكانات بشكل مستمر، أفراداً وتنظيمات.

(1) فلسطين في فكر الإمام عبد السلام ياسين، عمر أمكاسو، مؤسسة الإمام عبد السلام ياسين للأبحاث والدراسات، كتاب جماعي، الرباط المغرب، ط1، 1441هـ 2019م، ص 5.